قصة قصيرة

المغارة

محمد سماره

كانت المغارة في أول عهدها ذات مدخلين ينفتحان على فضاء يمتد بلا نهاية. ثم أغلق أحدهما بفعل القصف، فصار لزاماً علينا أن نظل في الداخل، فلا نطلّ برؤوسنا أو نخرج. وتحوّلت المغارة بعد انهيار مدخلها الصخري من الجهة الأخرى الى شيء يقترب في سريته من كمين مرعب. وفي الليل تلمع النجوم من خلف الجبل كعين سيجارة مشتعلة. نرقبها بصدر مغلق، ونتراجع الى الداخل حيث الرطوبة، والفتحة المغلقة. ومن مرتفعنا الشاهق تبدو الوديان، والفراغ السديمي كشريط سينمائي. فهل نصدق؟ وكانت الشمس محتجبة طوال النهار تقريباً، لا يظهر منها إلا خط صغير ملتوٍ كالسيف. ذلك أن انحرافاً صخرياً في فوهة المغارة، وانخفاضاً في أرضيتها لم يكونا يسمحان لنا بأكثر مما نراه.

وأسبوع كامل يمضي على أربعة مقاتلين في مغارة محاصرة شيء يثير الدهشة. لكننا كنا نرقب الموقف، ونخطط بطريقة سريعة في محاولة منا لأن نجد ثغرة للخلاص. ولم يكن الخلاص إلا في الفتحة الأخرى المغلقة. وكان فتحها حلماً يداهمنا في كل لحظةٍ، حتى قال أحدنا: في كل إغفاءة أرى الحلم ذاته. مغارات عديدة تنفتح مرة واحدة على فضاء بحجم السماء. وكان من الصعب تحديد معنى الإغفاءة المقصودة. في الواقع انها إغفاءة كاذبة لا تتعدى الدقائق. والا كيف تتحدث عن إغفاءةٍ وأنت محاصر في مغارة رطبة، وثمة في الجبل المقابل عدو يدرك تماماً أنك في ضائقة وأنك لا تملك السلاح الثقيل؟

وكان الغذاء مشكلة أخرى تبرز كالسكين. فلم يكن ثمة ما يكفي لأسبوع آخر. الأمر الذي يدفع بعضنا الى ممارسة طقوس حسابات الانقاذ ـ كما أسميناها ـ بشكل يومي متعب. يمسك أحدنا ورقة وقلماً، ويحاول بطريقته معرفة عدد الأيام التي تبقّت لنفاد طعامنا وسجائرنا بواقع قطعة صغيرة من الخبز بحجم الإصبع لكل واحد منا، وربع سيجارة، وثلث استكان من الماء. وكان الخلاص شيئاً عسيراً. فهل نستطيع رفع الصخور التي أغلقت المنفذ الآخر، وكل صخرة بحجم بعير؟ غير أن ثمة أملاً أن يعرف الرفاق في الوادي القريب ما نحن فيه. ذلك أننا لم نكن نملك جهاز اتصال. ضاع كل شيء: اللاسلكي الذي تطاير في الهواء، وقذائف التنوير التي اندفعت مع صندوقها الخشبي حيث استقرّت فوق الصخور في الوديان. والماء. آه. إنها الكلمة التي أتوقّف عندها كقنبلة موقوتة. فهل يدرك من لم يجرب العطش مغزىٰ أن يكون الماء قنبلة موقوتة؟

كان خيالاً في الرأس، وهذياناً كحدّ السيف. وذلك يشبه ما حدث في قصة أجنبية قرأتها:

كان الطيار في القصة هائماً في الصحراء دون ماء. وكان الماء يمثل في رأسه جنوناً، حتى تحوّلت الصحراء في خياله الى بحيرة كبيرة. وأخيراً، وفي يوم ساخن أمطرت السماء، فهرع الى الطائرة المحطمة، وتناول خرقة من القماش ووضعها على سطح الطائرة في انتظار قطرات المطر. وحين هدأت السماء، كانت الخرقة مبللة فعلاً، فعصر ذلك السائل، الذي هو مزيج من الماء والرمل ورائحة البنزين، في فمه كالمخبول. لكنه بعد أقل من دقيقة، تقيأ ما في جوفه، واستلقى على الرمل في انتظار النهاية.

عندما ذكرت ذلك لأحد الرفاق لم يزد على أن هزّ منكبيه وقال بلا مبالاة: لقد كان غبياً ذلك الطيار. كان في مقدوره أن يحفر بصفيح طائرته المحطمة جوف الصحراء ويفجّر نافورة من الماء الثلجيّ.

والواقع أن اقتراحه أثار في رأسي فكرة نيّرة للبحث عن سبل جديدة للمياه. وكان الماء خصماً شرساً. ما ان تهطل السماء حتى يسقط المطر في مدخل المغارة ثم ينحرف بعناد مكوّناً قطراتٍ مائية كالفضة، ويتناثر تاركاً على المدخل رطوبة ناعمة. وفي النهاية يسيل مدراراً، وينحدر في أنهر صغيرة، ملتوياً على نفسه، ويستقر أخيراً في باطن الأرض، وفراغات الصخور، ثم لا يعود ثمة ماء.

وعلى هذا صار الماء سراباً. فهل تكفي القطرات المتبقية في زمزمية أحدنا أن تمنح أربعة أفراد الحياة لأسبوع آخر؟ وظلّت الفتحة، تلك الفتحة العنيدة تضرب في الرأس. فما أن نجد أنفسنا أمام فوهتها المغلفة حتى تنقبض صدورنا. ذلك أنها السبيل الوحيد للجهة الأخرى حيث الرفاق. ومعنىٰ ذلك أننا سنجد الطعام، وبحيرات من المياه العذبة.

أما النوم. آه. إنه النوم ثانية. يا للأسطورة القاتلة. فهل نحن نعرف النوم حقاً؟! كان الواحد منا ما أن يغفو قليلاً حتى يستيقظ على أثر حلم كابوسي أو هزة قنبلة. فينتفض غافياً، صاحياً. يختلط الواقع بالحلم، والوعي باللاوعي. يدور بعينيه في المكان المظلم كما لو يتلمس شيئاً ما. ثم يعود الى اغفاءته من جديد. نعرف ذلك رغم الظلام والدوي. رغم أننا لا نرى إلا أجساداً شبحية متحركة. والمدهش أننا اكتسبنا حاسة مدهشة جديدة. فقد كنا نعرف متى ارتسمت البسمة على وجه «سين» ومتى قطب «صاد». وأزيد على ذلك أننا كنا نعرف ما إذا كان «نون» في حالة تفكير، وما إذا كان «راء» يحاول سرقة إغفاءته القصيرة. أدركنا كل ذلك بفعل العادة. فلقد اكسبتنا العادة والخبرة حدساً عجيباً. ربما هو ما يطلق عليه البعض الحاسّة السادسة. فهل كانت الحاسّة السادسة فعلاً؟

أما الليل. فهل كان ذلك الزائر اليومي أفضل حالاً؟ كنا في حيرة كيف نقضي الساعات في انتظار الفجر. نتحدث أو نصمت مراقبين الثعالب وهي تتخاطف أمام مدخل المغارة بأذيالها المترفة. وإذ يداهمنا السأم ندخن. وكان التدخين عملية تشبه التعذيب تماماً. تدور السيجارة الواحدة بين أربعة أفراد تمتصها بشراهة. وإذ لا يبقى منها الا عقبها المتوهج نلقي به في وسطنا ونظل نرقب العين الحمراء حتى تنطفىء.

فيا للوقت الذي يشبه الجرح!

في البدء كنا نحسبه بالأيام. ثم بالساعات. ثم صار كابوساً، فبدأنا نحسبه بالدقائق، فبالثواني. كم ثانية مضت على وجودنا في المغارة؟ وصرنا بحكم العلاقة والوقت والحصار نفهم دواخل بعضنا البعض كما أسلفت. فلقد منحتنا الأيام المنصرمة وعياً بطبيعة كل واحد منا. وعرفنا أدقّ خصوصياته. فنحن نعرف مثلاً كيف تعرّفَ رفيقنا القروي الوافد من الجنوب على حبيبته ومتى تزوّج. وكم من السنوات أمضى في الوظيفة قبل ان يكون هنا. وكم عدد الوصفات الطبيّة التي استعملها ليشفي دمّلة برزت تحت إبطه. وكم من قناني الغاز يستهلك في الشهر. ولماذا هو يحزن إذ يرى شجرة مقطوعة على قارعة الطريق؟ وآه من ذلك البغدادي الضاحك! إنه لا يكفّ عن قول الشعر الفكه والحزّورات التي لم نجد لواحدةٍ منها حلاً. وكان يتعبنا بقول كلمات تختلط فيها الحروف المتشابهة فنعجز ان نقولها مرة واحدة دون أن تختلط الحروف ويصير المعنى مضحكاً. وبالذلك الرجل الجبلي الطيب! إنه مازال يعشق تناول الجوز واللوز حدّ الإفراط. ويقول أحياناً مداعباً إنه مستعد أن يتنازل عن حصته من الماء مقابل حفنة من الجوز. أو يقول أحياناً أخرىٰ: إنه مازال رغم سنواته الأربعين يكسر الجوز بأسنانه مع أنه ـ والله العظيم ـ يشاهد البرنامج التلفزيوني «سلامتك».

أما أنا، فماذا أقول عن القطر العربي الذي جئت منه؟ لقد حكيت لهم ما فيه الكفاية. فلم تبق مدينة أو زقاق أو شارع إلا ورويت لهم طرفاً من عادات أهله وتقاليدهم. ووضعت لهم بلغة تختلط بدويّ القنابل كيف يصنعون بعض الأكلات الشعبية الشهيرة كالمدفونة، والمغربية، والعوامة، والمحمّر والقطايف. فهل هي صدفة أن يتوزع ثلاثة من مواقع جغرافيّة مختلفة تمتد من الشمال الى الجنوب، ويكون الرابع ـ وهو أنا ـ من قطر عربي، أم أنها الحاسّة السادسة أو السابعة!

* * *

والآن. هل يكفي ما ذكرت لتكوين صورة واضحة عن أربعة أفراد ـ تعمّدتُ ألاّ أذكر أسماءهم ـ في مغارة منعزلة! حسناً. كان ثمة شيء آخر يعيش معنا اسمه الجرذان. أكثر من عشرة جرذان تطل برؤوسها من جحور سرية، وتندس بين طيات ثيابنا، حتىٰ إذا نهض أحدنا اكتشف (يا للرعب!) إنه كان يخبىء في جيبه أو بين ثنايا بطانيته جرذاً بحجم الحذاء. وصرنا ـ في الأخير ـ ننظر اليها كشيء لا بد من وجوده. شيء لا اعتراض عليه. وصار النهوض من الإغفاءة وفي الجيب جرذ شيء طبيعي. بل مضحك. لكننا ـ يا للكارثة ـ اكتشفنا أن الجرذان تزاحمنا على طعامنا. ولم يبق إلا أن تزاحمنا على بقايا السجائر. وتحوّل عدم اكتراثنا الى صراع

رهيب. صرنا ننظر اليها بعدائية سيما حين رأينا تحت أسنان جرذ قطعة خبز صغيرة. وقلنا انها النهاية. وقتلنا في ساعة واحدة أربعة جرذان. وظلت المجموعة الأخرى تطلّ برؤوسها من جحورها الرطبة ثم ما تلبث أن تتراجع فجأة. ولا تخرج إلا في الليل حيث تبدأ الغفوة. فلقد امتلكت هي الأخرى الحاسّة السادسة.

ذات نهار خرج جرذ فأنشب أسنانه في زمزمية الماء. رآه أحدنا فهجم عليه، وأمسكه من ذيله ولطمه في الأرض، وقذف به خارج المغارة. وتحوّلت الزمزمية الى شيء عجيب. خرمشات، وحزوز رفيعة متعرجة، وأثار أنياب خنجرية. فهل يملك خنجراً في حلقه، هذا الجرذ؟!

وصرنا بعد ذلك أكثر حرصاً. نضع الخبز الذي كان يتعفن بين طيّات ثيابنا، ونتوسد السلاح إذ ننام. فأنت ترىٰ أربع رشاشات تحت أربعة رؤوس بشرية. ووضعنا كومة المتفجرات، بقايا المتفجرات التي لم يكن ثمة شك في فسادها، وضعناها تحت البصر واليد. فهل رأيت حرصاً عنيداً أكثر من هذا؟!

ذات صباح هطل السماء بغزارة، واندلقت سيول من سطح المغارة الى الفوهة، فكان يتوهج اشعاع فضي يملأ جوف المغارة، ويتناثر الرذاذ بلّورياً، صافياً الى الداخل، ويرشّنا بعذوبة سحرية. واقترح أحدنا ان يربط خوذته ويضعها في الخارج في محاولة للحصول على الماء.

في الواقع لم يكن الماء الذي حصلنا عليه نقياً، صافياً. كان خليطاً من الماء والطين والرائحة الزنخة. لكنه على أية حال ساعدنا في ترطيب الحلوق، وهذا يكفي. ووضعنا خوذة أخرىٰ، وانتظرنا. وبعد ثوانٍ انطلقت قذيفة من الجبل المقابل، وسقطت بالقرب من المدخل، فتناثر الماء والتراب. وعندما سحبنا الخوذة لم نتعرّف عليها. وصار الماء بعد ذلك جنوناً. انها الحلقة المفقودة في سلسلة الحياة: غذاء وماء وضوء وهواء. فهل نستطيع الحصول على واحدة منها ونحن معلّقون في السماء! والرصاص! هل كنا نملك منه أكثر من مخزن واحد وبضع رصاصات، وثمة عدوّ يقبع مختبئاً خلف انحدار صخري لا نراه إطلاقاً. ما ان يطلق قذيفة حتى يتراجع مذعوراً، مندسّاً وراء التلول والصخور. وخطرت لنا فكرة انتظار نفاد ذخيرته ثم نتسلل مع الطرق السرية المتشعبة ونمسكه باليد. يا للرعب! هل سيجد قبضة صخرية أشد من قبضتنا؟ لقد أقسم أحدنا انه سيقاتل بأسنانه إن لم يجد الرصاص أو الحربة.

وتحوّلنا بعد تلك الأيام الرهيبة الى شيء لا يوصف. كان علينا أن نجد خلاصاً. وكان من الجنون طبعاً ان نخرج من المغارة ونعرض أجسادنا للقذائف. وصاح أحدنا سأقاتل بالحجارة.

وبلمح البصر، وقبل أن نهضم كلماته، نهض مزمجراً، واتجه الى الخارج، فصرخنا به جميعاً. لم يلتفت. لم يقل شيئاً. كنا نعرف أنه يفعلها. فهرولنا خلفه، وأمسكنا به بقوة، وكان قد تحوّل الى بركان.

* * *

لم تكن الأيام العشرة التي انصرمت قد قضت على ذلك الشيء السحري الذي في الصدر واسمه الحياة. لم نكن نشعر حتى بالإحباط النفسي. بل كنا ندرك أن ثمة خلاصاً سيأتي على هيأة شلّال من الضوء ويملأ جوف المغارة. وكنا نضحك؛ كالعادة. وتدور النكات فيما بيننا كما تدار الحلوى بين الأحباب، ويُعيد المقاتل الجبلي حكاية الجوز واللوز. ويفحمنا البغدادي بحزّوراته وحروفه المتشابهة المرتبكة. ويقول الجنوبي أنه ينوي بعث طفل جديد في بيته وبذلك يصبح لديه نصف دزينة. أما أنا فما عساي أقول؟ أفرغت ما في جعبتي من طبخات شعبية وحكاية عن المدن واللهجات فلم يبق إلا أن أتحدث عن الحبيبة البعيدة.

قلت لهم إنها في الانتظار. وربما تتساءل لماذا لم تصلها خصاف التمر؟ ضحك الرفاق وقالوا مداعبين: اكتب لها ان عشّ الزوجية سيكون مغارة فوق قمة جبل. لكن احذر أن تذكر لها حكاية الجرذان!

إنه لشيء مدهش أن تقول نكتةً في مغارة وثمة جرذان تترصد غذاءك. وفي الخارج تتخاطف الذيول الثعلبية كاشباح. لكن هذا ما حدث.

ونفد الغذاء في اليوم العاشر. وصرنا نبحث عما يمكن أن يمدّنا بالحياة ليوم آخر. الأمر الذي دفع أحدنا لأن يفكر في انتظار أرنب بري أو حتى ثعلب. لكن ـ ياللنكد ـ غابت الحيوانات ذلك اليوم. وحتى الجرذان. فهل أصدّق؟ اختفت تماماً. فلم تعد تختفي بين طيّات ثيابنا وتضايقنا بأسنانها الخنجرية. فهل أدركت بغريزتها وضع الحالة الجديدة؟

وسقط واحد منا مغمىً عليه. ولولا أن السماء هطلت ذلك اليوم لما استطعنا أن نبقىٰ أحياء يوماً آخر. وجلسنا في المدخل، ووضعنا الخوذ في انتظار الماء. وكان الظلام شاملاً. وشعرت وأنا أفتح صدري للمطر والريح أن كل شيء رغم أصابع الظلام بخير، وأن وجهاً يلوح من بين السحاب يقول ضاحكاً: أين خصاف التمر التي وعدت؟

وراح الرفاق يتأمّلون الجبال والغيوم والتماع البرق كما لو كانوا مسحورين. وتبلّلت أحذيتنا الثقيلة، فنزعها بعضنا. وقال البغدادي ضاحكاً: ما أجمل أن يعثر كل واحد منّا ـ في حذائه ـ على جرذ!

وأخذ القروي (ياللعجب!) يصدح بصوت أقسم غير حانث إني ما سمعت مثل نبراته. وقال الجبلي حكمة: ان بين الجبال والقلوب شبهاً، فكلاهما بحاجة الى الغسل بين حين وآخر. فهل يعرف الأعداء كيف تغتسل القلوب؟ ومضت أكثر من ساعة هدأ خلالها المطر، وتوهجت كالنجوم، وكنا قد ملأنا ثلاث خوذ بماءٍ كان هذه المرة خالياً من الملوحة والطين. وعثر أحدنا على قطعة خبز يابسة كانت قد اختبأت سهواً في «كفة» بنطلونه، فالتقطها بأصابع حذرة، وقسمها بيننا. واكتشفنا أننا كنا في الخارج ثلاثة فقط. فأين الرابع؟ وجاءنا صوته من الداخل موضحاً أنه يحاول اصلاح المتفجرات الفاسدة.

وقلنا ضاحكين: إذا كنت تعترف أنها فاسدة فكيف تصلحها إذن؟

فأجاب بأنه يحاول فقط.

وفكّرنا في اختراق الشعاب والوديان والالتفاف حول العدوّ، لكن نظرة الى الظلام والسيول والوديان الطينية حملتنا نتوقف. وسمعنا صوت رفيقنا يغنّي في الداخل وهو يعمل. فأدهشنا أن يغنّي المحاصر الجائع!

وصاح أحدنا: هل ثمة فائدة من عملك هذا؟

تردّد صوته في الداخل: قلت إني أحاول فقط. وثمة بصيص..

ـ ماذا تعني؟

لم يجب هذه المرة. كان مشغولاً بلا شك. ودخل عليه واحد منا. ثم عاد بعد قليل مندهشاً: هل أصدّق؟ إنه يحتضن المتفجرات كما لو أنه يحتضن ولده. وصحنا بصوتٍ واحد: حذار. فقد تنفجر بك.

فجاء صوته واثقاً: وماذا يعني ذلك؟ سينفتح الباب المغلق ولن تكون ثمة خسارة على أية حال.

ومع أننا كنا ندرك خبرته في المتفجرات. فقد تساءلنا ما إذا كان في قدرة الخبرة أن تنفخ الروح في الجسد الميت! وانثالت الأمطار من جديد، وانحدرت السيول باتجاه الوديان حيث الصخور والضياع. غير أننا كنا منصرفين بتفكيرنا الى ذلك الذي يصنع الخلاص.

وقال واحد منّا: هل ثمة أمل فيما تفعله حقاً؟

ـ أجل. وقد يحدث انفجار. لا تقتربوا.

ياللدهشة. هل كان هذا العزيز جادّاً؟ كنا على يقين بأن لا فائدة من متفجرات أفسدها المطر القديم. وأنه ينفخ ـ في هذا الظلام ـ في قربةٍ مقطوعة. وقبل ان نهتف به محذّرين بإلحاح ـ أقول قبل أن تخرج الأصوات من الحناجر. التمعت المغارة، ودوّى صوت رهيب، وانهار شيء من الجهة الأخرى، وتطاير الغبار، ولم نعد نرى شيئاً.

* * *

في الفجر..

كان الجسد نائماً في سكون. وخيط من الدم يرسم على الصخور خطوطاً أرجوانية. وثمة «طاقة» بحجم السماء يدخلها عمود من النور الباهر، بينما المطر ينث هادئاً..

ورأينا الرفاق هناك..

بغداد

صدر حديثاً

الفتاة الايطالية

تأليف ايريس مردوخ

ترجمة فؤاد كامل

هرب ادموند من عائلته إلى حياة متوحّدة. وحين عاد للمشاركة في جنازة أمّه، وجد نفسه داخل مشاكل قديمة ومريعة، كما وجد مشاكل جديدة أخرى.

واكتشف من جديد خادمة العائلة الأزليّة، الفتاة الايطالية الدائمة التغيُّر والتي كانت أبداً الأمّ الأخرى. وهذه العودة الخاصّة إلى الأمّ تخفي عدة مفاجآت لادموند.

وقد علقت جريدة الدايلي تلغراف على الرواية بأن مؤلفتها ايريس مردوخ هي أفضل روائية انكليزية معاصرة.

منشورات دار الآداب